مراكش الحمراء

نظرة عامة ـ ماضي مراكش وحاضرها
ـ اصلاح بعض اخطاء متداولة في شأن بعض آثارها ـ
بقلم شاعر مراكش المجيد سيدي احمد بوسته

إن مدينة مراكش الحمراء عاصمة الجنوب وخراسان المغرب منذ أسسها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٤ واتخذها دار ملكه بقيت من ذلك الحين عاصمة للمغرب والاندلس مدة حكم المرابطين والموحدين المنتقل اليهم ملك العدوتين بعدهم ، وكتب التاريخ طافحة بما كان لهاتين الدولتين من الصولة والجاه من أقاصي حدود المغرب شرقاً وجنوباً أو ما يعبر عنه اليوم بافريقيا الشمالية الى أقاصي شمال بلاد الاندلس ، وغير خاف ما اشتملت عليه هاته المملكة من الاقطار الشاسعة والاطراف المترامية ، ومن ألقى نظرة على ما ازدهت وازدهرت به هاته المملكة من علم وحضارة وما انجبت مدنها وقبائلها من نجباء الملوك والامراء وفطاحل العلماء وفحول الصناع والفنانين والاقطاب في كل ناحية من نواحي الاجتماع والعمران ادرك بطبيعة الحال ما قد كان من الاهمية للمدينة الحمراء بصفة كونها قلب هاته المملكة ومقر ملوكها واليها يحج أعيانها وعظماؤها ومنها تصدر الاوامر والنواهي الى سائر الجهات حتى سمي المغرب من ذلك الحين في عرف أمم العالم (مراكش Maroc) وكم هاجر اليها من علماء وفلاسفة وكم خلد فيها الملوك من معالم ومشاهد لا زالت قائمة العين والاثر ، تاهيك بقصورها الفخمة ومساجدها العظيمة ومناراتها الناطحات السحاب ومدارسها الشامخة البنيان البديعة الصنع واسواقها المتسقة الدالة على ما كان لاهل تلك العصور الغابرة من ترتيب وتنسيق واحيائها المتباعدة المستغني كل منها عن الاخر الى مزارعها الخصبة ومتاجرها الرائجة الرابحة ومصانعها الجيدة الاتقان القائمة بحاجيات نحو الثلاثة ملايين من سكان المغرب المحيطين بها الى غير ذلك من الامور التي تجعل مراكش الحمراء أو بهجة لمتون في مصاف المدن الكبيرة التي يحتاج اليها غيرها ولا تحتاج هي الى الغير .

ومعلوم أن المدن بطبيعة العمران تنشأ صغيرة ثم تنمو وتكبر بمرور الازمان وتعاقب السنين اذا كانت فيها قابلية للتعمير والخلود والا فكم من مدينة اسست واعتز بها اهلها واعتزت هي بهم فانقرضت بانقراضهم ولم يبق إلا ذكرها ، ومدينة مراكش من القبيل الاول فلها من العمر تسعة قرون ولم يزدها تقادم الدهر إلا عزةً واعجاباً بها ، فقد أسسها يوسف بن تاشفين في أواسط القرن الخامس الهجري وكانت طالع سعده حيث عبر منها اثر بنائها الى عدوة الاندلس وضم تلك المملكة العريضة الى ملكه بالمغرب وبعد وفاته واقباره بها خلفه ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وفي عصره ازدهر ملك المتونيين وتمكن نفوذهم في العدوتين حيث صارتا مملكة واحدة عاصمتها مراكش الحمراء فازداد علي بن يوسف اهتبالاً بها فأدار سورها وبنى مسجدها الاعظم المعروف بمسجد ابن يوسف وانفق على السور نحو السبعين الف دينار ذهباً وعلى المسجد نحو الستين الفا على ذكر بعض المؤرخين ، ثم ملك المغرب بعد اللمتونيين الموحدون بنو عبد المومن فكان لمراكش في زمنهم شأن عظيم ومكانة عالية ، ففي الصحيفة ١٢٤ من الجزء الثاني من نفح الطيب : « ان حضرة مراكش هي بغداد المغرب وهي أعظم ما في بر العدوتين واكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها انما ظهرت في مدة بني عبد المومن وكانوا يجلبون اليها صناع الاندلس من جزيرتهم وذلك

مشهور ومعلوم الى الآن ومدينة تونس انتقلت اليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان افريقيا أبي زكرياء » فغرس عبد المومن بستان المسرة (أكدال) خارج مراكش وكان طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب من ذلك فيه كل فاكهة تشتهيها الانفس وجلب اليه الماء من اغمات ثم استنبط له عيوناً كثيرة وكان يبلغ مبيع زيتونه وفواكهه ثلاثين الف دينار مومنية على رخص الفواكه بمراكش ولم تزل من ذلك الحين عنايات الملوك تتعاقب على هذا البستان الى وقتنا هذا بتقسيمه وتنسيق أجزائه وتوسيع برك سقيه حتى صيروها شبه بحيرات تجري فيها القوارب والفلك للنزهة والتسلية وسموا منتزهاته باسماء اندلسية كالزهراء والصالحة والزاهرية والسعادة والغرسية ودار الهناء ، وآخر القصور المشيدة فيه قصر « الدار البيضاء » الذي شيده أخيراً السلطان المقدس مولانا الحسن العلوي ، ولو لم يبق دليل على عظمة مراكش غير هذا البستان الهائل لكفى .

وكان لواسطة عقد الموحدين يعقوب المنصور ولع شديد بمراكش فاحتفل بتشييدها وبالغ في تنميق مساجدها وتنجيد مصانعها ومعاهدها ولما عزم على المسير الى الاندلس أوصى نوابه ببناء قصبة مراكش والاعتناء بتشييد قصورها ، ومن آثاره الباقية بها الى الآن الباب المعروف بباب أكناو ولا مزيد على ضخامته وارتفاعه وتركيب احجاره المنقوشة نقشاً بديعاً وأمرهم ببناء الجامع الاعظم بها المنسوب اليه الى اليوم وتشييد مناره ومنار جامع الكتبيين المضروب به المثل في الارتفاع وعظم الهيكل ، وقد صنع لهذين المسجدين مسجد المنصور ومسجد الكتبيين منبران بالاندلس في غاية الاتقان من عود الصندل الاحمر وصفائح الذهب والفضة مطعم بقطع دقيقة من الصدف ومنبر مسجد الكتبيين لا زال قائم الذات الى الآن وبه بعض آثار هاته الاوصاف ، واتخذ المنصور مقصورة لمصلاه بجامع القصبة بشكل هندسي عجيب بحيث أنها تخرج عند وصوله مع حاشيته اليها وتختفي في الارض والحائط اذا خرجوا وفيها قال بعض الادباء :

طوراً تكون بمن حوته محيطة
فكأنها سور من الاسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة
فكأنها سر من الاسرار
وكأنها علمت مقادير الورى
فتعرفت لهم على مقدار
فإذا أحست بالامام يزورها
في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده
كتكون الهالات للاقمار

وتولى الملك بعد الموحدين المرينيون وهؤلاء وإن اتخذوا فاساً عاصمة ملكهم لم يغفلوا أمر مراكش بل خلفوا فيها آثاراً تذكر فتشكر وأجلها المدرسة العظيمة المجاورة لمسجد ابن يوسف ويسميها الناس مدرسة ابن يوسف ظانين أن بانيها هو علي بن يوسف بن تاشفين باني المسجد والحقيقة أن مؤسسها هو السلطان أبو الحسن المريني ولا زالت هذه المدرسة آية شاهدة في فن الزخرفة والنقش والتخريم سواء على الخشب أو الزليج أو الرخام وهي برهان قائم على ما كان للعلم ودراسته من اهتمام ومكانة في هذه المدينة السعيدة ، وهذه المدرسة الى الآن وحتى الآن هي الاولى في العمارة وإيواء الطلبة الواردين من الجهات لتلقي العلوم بمراكش لمجاورتها لجامع ابن يوسف الاعظم المعد للتدريس كالقرويين .

وبعد انقراض المرينيين قام بالامر بعدهم الملوك

السعديون ، جعلوا مراكش عاصمة لهم وأدركت في عصرهم شأواً عظيماً فقد انشأ السلطان الغالب بالله في عشرة السبعين وتسعمائة جامع الاشراف الكبير بحومة المواسين والسقاية المتصلة به التي كان عليها مدار المدينة وبنى المارستان للمجانين الكائن بباب الطالعة ووقف عليه أوقافاً عظيمة وقد صار فيما بعد سجناً للنساء ثم صار الآن تجهز فيه أموات الفقراء ، وأنشأت مسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي مسجد باب دكالة الكبير وجعلته في صورته وشكله كمسجد المواسين ، وفي أيام السعديين اسس المسجد الاعظم بحومة ابن صالح ومدرسته الكبيرة ومناره العجيب الشكل الذي لم يُر مثله المطعم بالزليج الاخضر المركب بالمسامير بحيث يزال ويرد بدون حفر ولا تقليع ؛ وذكر صاحب النزهة ان السلطان عبد الله السعدي ابتنى الجامع الكبير الكائن بجوار أبي العباس السبتي وشيد مناره وشحن الخزانة التي بقبلي الجامع المذكور بنفائس الدفاتر وأهم آثار الملوك السعديين بمراكش هو قصر البديع الذي بناه السلطان أبو العباس أحمد المنصور الذهبي فقد سارت بذكره الركبان وروى حديثه فلان عن فلان وكان ابتداء الشروع في تأسيسه في شوال خامس الاشهر من خلافته سنة ٩٨٦ واتصل العمل فيه الى سنة ١٠٠٢ لم يتخلل ذلك فترة وحشد له الصناع من بلاد الافرنج فكان يجتمع كل يوم فيه من أرباب الصنائع ومهرة الحكماء خلق عظيم وهو عبارة عن دار مربعة الشكل محتوية على الكثير من القباب والقصور وبه من الرخام والمرمر والزليج الملون ما يبهر العقول وفي حيطانه وسقوفه من الجبص المخرم المموه بالذهب والفضة ما يسحر الالباب ومما قالوا فيه :

كل قصر بعد البديع يذم
فيه طاب المجنى وطاب المشم
منظر رائق وماء نمير
وثرىً عاطر وقصر أشم
إن مراكشاً به قد تباهت
مفخراً فهي للعلا الدهر تسمو

ونقش في داخل قبابه وحيطانه من الاشعار الدقيقة لادباء عصره ما يجل عن الوصف ومن شاء امتاع ناظره من ذلك فليراجع الجزء الثالث من الاستقصا ، ومن آثار السعديين الباقية الى الآن الدالة على عظمتهم مقبرة ملوكهم وعائلتهم الكائنة قرب مسجد المنصور بالقصبة التي كل من زارها يقف مندهشاً لما فات لهؤلاء الملوك من العناية وعلو الهمة كما يستدل في وقت واحد على ما كان بمراكش الحمراء من رفعة الشأن من الصنائع التي هي عنوان التمدن والحضارة وغالب ملوك السعديين وأولادهم وبناتهم مدفونون بهذه المقبرة وكل قبر مغطى برخامة محدودبة منقوش عليها بخط جميل اسم صاحبه وتاريخ وفاته وبعض أبيات شعرية في رثائه أو في موعظة الموت .

(البقية في العدد)

على ذكر مراكش

هل في هذه البلاد بلدة كان لها من العظمة والشان ما كان لمدينة مراكش ؟ ألم تكن عاصمة لمملكة امتدت شرقاً الى طرابلس وشمالا الى جبال البرينية ، ألم تكن قاعدة المغرب في أعز ايامه فكانت دار علم وصلاح وبأس شديد تخرج منها الجنود الظافرة وتتلاقى فيها الوفود العالمة المفكرة .

وأين الحاضر من الماضي ؟ فمراكش الآن مثل الحسناء العجوز ليس لها الا التغني بماضيها ، فقدت كل شيء